القُوَى المُتَصَارِعَة في المَغرِب
خِلَال القَرن الثاني الهجري
ودَوْرُ لِيبيَا فيه

الباحث :

الدكتور مراجع الغناي

إن تاريخ النفوذ العباسي في ليبيا وإفريقية ، يعود إلى أول العهد العباسي ، منذ زمن أبي العباس السفاح ، وإن كان نفوذاً إسمياً فقط . وذلك أن كل بلاد المغرب ، ابتداء من حد مصر الغربي وحتى المحيط الأطلسي وكذلك الأندلس الإسلامية ، كانت تحت إمرة عبد الرحمن بن حبيب الفهري .

وكان عبد الرحمن هذا لما أن ضعفت الدولة الأموية في آخر أيامها ، وكثرت الفتن في المشرق واشتدت الخصومات بين أبناء البيت الأموي ، وكثر الثوار بالمغرب والأندلس ، واشتد أوار الفتنة بين القيسية واليمنية في المغربين ، انتزى على إمارة المغرب ، وطرد واليه حنظلة بن صفوان في جمادى الأولى سنة ١٢٧ هـ ، وأقام نفسه أميراً عليه . ثم إنه بايع مروان بن محمد آخر أمراء بني أمية . ولما أن سقطت الدولة الأموية سنة ١٣٢ هـ وقامت دولة بني العباس ، قام عبد الرحمن بن حبيب بإرسال بيعته للخليفة العباسي أبي العباس السفاح .

ولما أن تولى الدولة العباسية ، الخليفة أبو جعفر المنصور ١٣٦ هـ بعث إلى ابن حبيب الفهري يستعجل بيعته ، فبايعه وأرسل إليه بعض الهدايا . يقول الرقيق القيرواني عن ذلك : « ووجه إليه بهدية نزرة كان فيها بـزاة وكلاب وكتب إليه : إن إفريقية اليوم إسلامية كلها ، وقد انقطع السبي منها فلا تسألني ما ليس قبلي . فغضب أبو جعفر وكتب إليه يتوعده »[1] .

---

(١) الرقيق ، ١٣٣ . وراجع ابن عذارى ، ١/٧٦ . الاستقصا ، ١/١١٩ .

وكان أن ساءت العلاقات بين الطرفين ، وانتهت بخلع عبد الرحمن لطاعته لبني العباس ، والاستقلال بالمغرب استقلالاً تاماً . غير أنه مما يلفت النظر أن يكون سبب سوء العلاقة بين الطرفين ، عدم إرسال أمير المغرب لبعض الجواري إلى الأمير العباسي كما يذكر النص . والواقع يجب ألا نقف عند هذا السبب الواهي الذي ذكره المؤرخون .

وأرجح الأسباب ، أن عبد الرحمن بن حبيب لما أن قامت الدولة العباسية وقدم طاعته لها وبايع أول أمرائها ، كانت بيعته مقتصرة على الطاعة الإسمية والخطبة باسم العباسيين على منابر المغرب والأندلس . ولم تتعد طاعته لهم ذلك إلى إرساله للأموال المتحصلة من وجوه الجباية . ولعل أبا العباس السفاح قد رضي بهذا الوضع واكتفى من ابن حبيب بهذه الطاعة الظاهرة ، ذلك أنه كان في موقف لا يسمح له بالإصرار على ابن حبيب لأن يرسل إليه أموال المغرب ويشتد معه في المعاملة ، ذلك لأن الدولة العباسية ما زالت في ابتداء أمرها والخطر يتهددها ، ومن ثم فإنه من المفيد للسفاح أن يضمن ولاء عبد الرحمان بن حبيب وطاعته وبالتالي عموم السيادة العباسية على المغرب والأندلس ، وذلك بدلاً من خروجه عنهم وما قد يحمله ذلك من إمكان محاربته لهم أو تشجيعه للأمويين ورفدهم لاستعادة ملكهم ، خاصة أن الكثير من أمراء بني أميه كان قد لجأ إلى ابن حبيب وعاش في كنفه .

ولكن بعد أن تولى الدولة العباسية أبو جعفر المنصور اختلف الأمر ، ذلك أنه أكثر إقداماً من أبي العباس ، كما أن الدولة قد رسخت قواعدها وكثرت الأموال بخزائنها ونمى اقتصادها وكثرت جيوشها وانتظمت ، لذلك تطلع العباسيون إلى أن تكون سلطتهم على المغرب سلطة فعلية ، فالأرجح أن يكون أبو جعفر قد طلب من ابن حبيب ، أن يبعث له بأموال المغرب ، وأن هذا رفض ذلك ، وانتهى الأمر بانقطاع العلاقة بين الطرفين وتربص كل منهما بالآخر في جولة قادمة[1] . أما السبب الذي ذكره المؤرخون من أن العلاقة

---

(١) سعد زغلول ، تاريخ المغرب العربي ، ٢٩٨ .

ساءت بين ابن حبيب وأبي جعفر المنصور، لأن هذا لم يبعث له بجوارٍ في هديته بحجة أن السبي قد انقطع لأن إفريقية قد أصبحت إسلامية كلها. فهو سبب واهٍ جداً ولا يصح أن يكون سبباً في انقطاع العلاقة بين الطرفين.

أسباب سقوط الإمارة الفهرية :

تضافرت عدة عوامل على إسقاط الإمارة الفهرية من المغرب. منها كثرة الثوار من الصفرية والإباضية، تلك الثورات المتأججة والمتلاحقة التي استنزفت قوى الفهريين وأنهكتهم حتى كانت من العوامل الفعالة في سقوطهم. ومن أهم تلك العوامل، أن عبد الرحمن بن حبيب قد خلع طاعة العباسيين، وبذلك فقد الصفة الشرعية التي تخوله حكم المغرب، ومن ثم اعتبر في نظر جمهرة كبيرة من الناس خارجاً على إمام الأمة الإسلامية، وهم وإن خضعوا إلى طاعة ابن حبيب، فإنما كان ذلك خوفاً من بطشه، فقد كان قوياً وسط عصبية قبيلته ومواليه. غير أن ذلك لم يمنع من تربصهم به وإشاعة التذمر منه ومن حكمه، وعدم استحقاق بيته في الحكم. ولعل أهمية الصفة الشرعية للفهريين بتقديم طاعتهم للعباسيين والحصول على عقد الولاية منهم تتضح من خلال الأحداث التالية في إمارة بني فهر. ذلك أن كل من وصل إلى الحكم في المغرب من الأسرة الفهرية بعد عبد الرحمان، حاول الحصول على عقد التولية الشرعية من قبلهم. كما أن قبيلة ورفجومة الصفرية بزعامة عاصم بن جميل عندما اتجهت إلى القيروان لافتتاحها، خطبت ود أهل القيروان لكي تحصل على رضاهم وتحد من مقاومتهم، فزعمت أنها تريد إعادة الحكم إلى طاعة بني العباس والخطبة باسم أبي جعفر المنصور[1].

وبالإضافة إلى هذين العاملين، هناك عامل ثالث، يتمثل في أن الكثيرين من أمراء بني أمية ومواليهم قد لجأوا إلى المغرب بعد سقوط دولتهم وتتبع العباسيين لهم. وبدأ أولئك مع أتباعهم في التفكير بالقضاء على أسرة الفهريين

---

(١) الرقيق، ١٤٠. ابن عذارى، ١/٨٠. الناصري، ١/١٢٢.

الحاكمة ، واتخاذ المغرب قاعدة لاسترداد مملكتهم التي انهارت وسقطت . فالقاضي ابن الخليفة الأموي الوليد بن يزيد بن عبدالملك ، قد قال في مجلس شراب له مع أخيه المؤمن : « ما أغفل عبد الرحمان ! أيظن أنه يتمنى معنا ولاية ونحن أولاد الخليفة »[1] . وقد خاف عبد الرحمان على ملكه من بني أمية ومواليهم ، لذلك قتل القاضي والمؤمن إبني الوليد ، وقتل الكثيرين من أتباعهم ومواليهم . وقد لعبت نساء بني أمية دوراً فعالاً في هذا الصراع . ذلك أن الكثيرين من أمراء البيت الفهري قد تزوجوا من أميرات أمويات ممن لجأن إلى المغرب هرباً من بطش بني العباس . وكان من بين أولئك النسوة ، ابنة عم الأميرين القاضي والمؤمن ، وكانت زوجة لإلياس بن حبيب ، أخي عبد الرحمان . وقد أخذت تلك الأميرة تحرض زوجها ضد أخيه وتقول له : « إنه قد قتل أختانك تهاوناً بك ، وجعل العهد من بعده لحبيب ابنه ، وأنت صاحب حربه وسيفه الذي يصول به ، ولم تزل تغريه به»[2] .

وعلى الرغم من تتبع عبد الرحمان بن حبيب والفهريين لبني أميـــة وأنصارهم ، إلا أنهم لم يقضوا عليهم ، بل بقيت بين الناس بقية أتبـــاع أخذت في إثارة التذمر والعداء للفهريين ، وليس من المستبعد أن يكونوا قد شاركوا في الثورات التي قامت ضد بني فهر ومهدوا السبيل لسقوطهم .

ومن أهم تلك العوامل ، ذلك الصراع الذي نشب بين أفراد البيت الفهري حول السلطان . وابتدأ الصراع منذ عهد أول أمراء بني فهر ، عبد الرحمان بن حبيب . والسبب في ذلك أن عبد الرحمان بعد أن استقر له ملك المغرب ، عين ابنه حبيباً ولياً لعهده . وكان إلياس أخو عبد الرحمان ، يطمح إلى أن يلي الملك بعد أخيه ، وذلك لما بذله من جهد في سبيل تأثيل عرش الإمارة. ولما أن تم الأمر على غير ما يحب أضمر الغدر بأخيه . وكانت الظروف مهيأة لسقوط عبد الرحمان ، لذلك لم يلبث إلياس بالتضامن مع أخيه عبد الوارث

(١) الرقيق ، ١٣١ .

(٢) الرقيق ، ١٣٢ . وراجع الاستقصا ، ١/١١٩ .

أن أجمعا أمرهما وجمعا الأنصار حولهما ، ثم قاما باغتيال أخيهما واعتلى إلياس كرسي الإمارة[١] .

غير أن الأمر لم يستتب لإلياس ، ذلك أن حبيب بن عبد الرحمان تمكن من الهرب ليلة قتل والده، ولجأ إلى عمه عمران والي تونس. ثم إن إلياس خرج لقتال أخيه عمران وابن أخيه حبيب . وقبل أن يقع القتال بين الطرفين تم التفاوض بينهما ، وانتهى بتقسيم البلاد عليهم . وبمقتضى الاتفاق يكون لعمران ولاية تونس وصطفورة والجزيرة ولحبيب ولاية قفصة وقسطيلية ولإلياس بقية إفريقية والمغرب .

ثم إن إلياس عاد راجعاً مع أخيه عمران إلى تونس، وتركا حبيباً عائداً إلى ولايته . وفي الطريق إلى تونس، غدر إلياس بأخيه عمران وقبض عليه وكبله بالحديد ، ثم بعثه منفياً إلى الأندلس . والظاهر أن موقف حبيب بعد نفي عمه عمران أصبح ضعيفاً ، لدرجة أنه أخرج من ولايته وغرب في سفينة مع عمه عبد الوارث إلى الأندلس . ولكن حبيباً وعبدالوارث بدلاً من الاتجاه إلى الأندلس، نزلا بميناء مدينة طبرقة وتمكن أنصارهما من القبض على عاملها سليمان بن زياد ، وبعد ذلك استولى حبيب على الأربس . ولما أن بلغت أخباره إلياس خرج من القيروان في قواته ، ووقع قتال خفيف بين القوتين في أول يوم . وأثناء الليل قام حبيب بمخادعة عمه، إذ أنه أسرى بجيشه إلى القيروان بعد أن ترك معسكره قائماً والأضواء ظاهرة منه، وتمكن حبيب من الاستيلاء على القيروان، وبذلك أوهن عضد عمه وفت في قوته . ثم خرج حبيب لقتال عمه . وقبل أن يقع الصدام بين الطرفين ، كلم حبيب عمه أمام الجند وقال له : « لم نقتل صنائعنا وموالينا وهم لنا حصن . ولكن أبرز أنت وأنا ، فأينا قتل صاحبه استراح منه ، فناداه الناس : قد أنصفك يا إلياس »[٢] .

---

(١) الرقيق ، ١٣٥ ، ١٣٦ . ابن عذارى، ١/ ١٧٧ .

(٢) ابن عذارى ، ١/ ٧٩ .

وهكذا خرج العم وابن أخيه ليتبارزا أمام الجيشين من أجل السلطان. وانتهت المبارزة بتمكن حبيب من قتل عمه إلياس، وكان انتصار حبيب ومقتل عمه إلياس في شهر رجب سنة ١٣٨ هـ[1].

بعد مقتل إلياس على الوجه السابق، خاف عبد الوارث بن حبيب وكثير من موالي إلياس على أنفسهم من انتقام حبيب منهم، لذلك هربوا من الميدان ولجئوا إلى قبيلة ورفجومة. وكانت أغلب بطون هذه القبيلة تدين بالمذهب الصفري بزعامة عاصم بن جميل.

وبعد أن استتب الأمر لحبيب بن عبد الرحمان، أرسل إلى عاصم بن جميل يطلب منه أن يبعث له بمن لجأ إليه. فرفض هذا مما دفع حبيب إلى الخروج إليه بقواته، واقتتلا قتالاً عنيفاً انتهى بهزيمة حبيب. وبعد المعركة هرب حبيب إلى جبل أوراس، أما عاصم بن جميل وورفجومة فإنهم تمكنوا من دخول القيروان ثم إن ورفجومة تتبعت حبيباً في الأوراس فانتصرت علية مرة ثم كانت الكرة عليهم فهزموا وقتل عاصم بن جميل. غير أن ورفجومة بقيادة عبد الملك بن أبي الجعد تمكنت من إحلال الهزيمة بحبيب وقتله في شهر المحرم سنة ١٤٠ هـ. وبمقتل حبيب بن عبد الرحمان انتهى آخر أمل للفهريين في ملك إفريقية والمغرب. ودخلت البلاد مرحلة جديدة أصبح الصراع فيها ما بين الصفرية والإباضية، ثم بينهما وبين الدولة العباسية.

الصراع بين الصفرية والإباضية:

بعد أن سقطت الأسرة الفهرية، دخلت بلاد المغرب مرحلة أخرى أصبح الصراع فيها بين فرقتي الصفرية والإباضية والدولة العباسية. وبسقوط قاعدة الحكم بالمغرب في أيدي الصفرية، أصبح المجال متسعاً أمام هذه الفرقة

---

(١) الرقيق، ١٣٩. ابن عذارى، ١/٧٩.

لبسط نفوذها على بلاد المغرب . وكانت فرقتا الصفرية والإباضية تعملان منذ زمن وتتحينان الفرص للسيطرة على القيروان قاعدة حكم المغرب وكرسيه . وعليه فقد كسب الصفرية الجولة باستيلائهم على مدينة القيروان .

والصفرية قبل أن يدخلوا القيروان، وعدوا أهلها بأنهم سيحكمون باسم الخليفة العباسي أبي جعفر المنصور، حتى إذا ما استكان لهم سكان القيروان واستولوا على القيروان أظهروا نواياهم الحقيقية ورفضوا الحكم باسم العباسيين . وهذا منطق طبيعي بالنسبة لهذه الفرقة، بل وللإباضية أيضاً . إذ أنه ليس شرطاً واجباً في مبادىء هاتين الفرقتين أن تكون الخلافة من قريش. وفي نظرهما أن الإمامة تكون لأصلح فرد مسلم ، بغض النظر عن أصله وجنسه ولونه . والحقيقة أن هذا المبدأ من أعظم المبادىء التي تدين بها هاتان الفرقتان ، بل هو يتمشى مع روح الإسلام وسيرة الرسول عليه السلام .

لذلك رفض الصفرية أن يحكموا باسم العباسيين، وحكموا البلاد باسمهم. وهذا مما أضعف من مركزهم لدى جمهور الناس الذين كانوا يعتقدون وجوب حصولهم على عقد الولاية من الأمير العباسي .

في هذه الفترة التي سقط فيها الفهريون، أصبح الميدان السياسي خالياً من قوة تستمد سلطانها من مركز الحكم في المشرق . لذلك بعد أن سيطر الصفرية على قاعدة الحكم في بلاد المغرب ، أصبح من الطبيعي أن يقع الصراع بين الفرقتين الكبيرتين ، الصفرية والإباضية .

وأهمية هذه الفترة بالنسبة لتاريخ ليبيا، تعود إلى أن ليبيا كانت المركز الذي انطلقت منه الحركة الإباضية ثم إنها ــ وخاصة ولاية طرابلس ــ أصبحت مركز الإمام الذي قاد الإباضيين واستولى بهم على أغلب البلاد الليبية وبلاد إفريقية . وكان ذلك الإمام، هو أبو الخطاب عبد الأعلى بن السمح المعافري الحميـــري .

ومن سلسلة نسب أبي الخطاب ، يظهر أنه من عرب اليمن . وهو لم

يكن من الأصول العربية التي استقرت بإفريقية بعد الفتح الإسلامي ، وإنما جاء إلى ليبيا مع وفد من الطلبة الإباضية الذين كانوا يدرسون الفقه الإباضي على الفقيه مسلم أبي عبيدة بن أبي كريمة التميمي[١] .

والظاهر أن الإباضية كانوا يعملون بجد خلال القرن الثاني للهجرة على نشر دعوتهم في بلاد المغرب، وأنه كانت لهم وسائلهم وطرقهم في الدعوة، كما كان لهم دعاتهم الذين أعدوا لهذه الرسالة . ثم إن كبار دعاتهم كانوا يختارون أحسن الشباب من مريديهم ، ممن يتوفر فيهم الإيمان الراسخ بمبادىء المذهب ، والذكاء الوقاد، ومن تبشر شخصيته بمستقبل طيب ، كانوا ينتقونهم ويبعثون بهم إلى المشرق الإسلامي حيث توجد المراكز الرئيسية للإباضية وعلماؤهم الكبار ، ليتلقوا المزيد من العلم والإعداد.

وتتمثل لنا هذه البعثات أو الوفود إلى المشرق ، في ذلك الوفد الذي كان يضم عبد الرحمان بن رستم مؤسس الدولة الرستمية الإباضية فيما بعد، وعاصم السدراتي وإسماعيل بن درار الغدامسي وأبو داود القبلي النفزاوي[٢].

ويذكر الشماخي أن ذلك البعث، بعد أن أكمل تحصيله العلمي وانتوى العودة إلى المغرب : « استشاروا أبا عبيدة في شأنهم إن آنسوا من أنفسهم قوة، أيؤمرون عليهم أحداً منهم ؟ . قال : نعم ، وأشار إلى أبي الخطاب »[٣]. ومما يلفت النظر في هذا النص، أن الفقيه أبا عبيدة قد أشار على الوفد إن رأوا بأنفسهم قوة، أن يبايعوا أبا الخطاب إماماً لهم . فيمكننا أن نستنتج أن أمر الزعامة الإباضية في بلاد المغرب كان التعيين فيها حتى هذا الوقت يأتي من المشرق . ومما يؤكد هذا أن النص يذكر أن الوفد استشاره في إظهار الدعوة، وكان من الممكن أن يشير بالإيجاب أو بالسلب دون الإشارة إلى من يكون

---

(١) الشماخي، ١٢٣ ، ١٢٤ .

(٢) نفس المصدر والصفحات .

(٣) المصدر ، ١٢٤ .

الإمام. ولكن أبا عبيدة لم يكتف بالموافقة على ظهورهم، بل أشار إلى أن يكون أبو الخطاب أميرهم: «فإن أبى ذلك فاقتلوه»[1].

ولما أن عاد الوفد إلى حيز طرابلس، اجتمعوا بمن لهم الرأي والمشورة من الإباضية واتفقوا على إظهار أمرهم. واجتمعت كلمتهم على بيعة أبي الخطاب إماماً لهم، وكان ذلك بقرية تسمى صياد تقع إلى الغرب من مدينة طرابلس. وطلبوا من أبي الخطاب أن يبسط يده ليبايعوه، على أن يحكم بينهم بكتاب الله وسنة رسوله عليه السلام وآثار الصالحين من بعده[2].

واشترط عليهم أبو الخطاب قبل أن يتولى إمامتهم، ألا تذكر مسألة الحارث وعبد الجبار في معسكره. وكان الحارث وعبد الجبار قد تزعما الإباضية سنة ١٣١ هـ وتمكنا من الانتصار على والي طرابلس بكر بن عيسى القيسي. وحققا انتصارات كثيرة على قوات الفهريين حكام المغرب. غير أنهما وجدا في أحد الأيام مقتولين وسيف كل منهما في جسم الآخر. فاختلف الإباضية في أمرهما، هل دس عبد الرحمان بن حبيب عليهما من قتلهما ووضعهما على تلك الصورة ليوهم أتباعهما باختلافهما، أم أن الزعيمين اختلفا فعلاً فيما بينهما واقتتلا. وهنا ظهرت مسألة أيهما الظالم وأيهما المظلوم. واشتد الخلاف في هذه المسألة وأصبحت مسألة جدلية لا بين الإباضية في المغرب بل وفي المشرق كذلك. وأصبح موضوع الجدل بين الإباضية: «هي أن يقتتل رجلان من أهل الولاية، فيقتل كل واحد صاحبه ولا يدري الظالم والباغي من المبغي عليه. فبعضهم قالوا هما على ولايتهما حتى يتبين أمرهما وبعضهم قال نقف»[3]. وقد تدخل أبو عبيدة وحاجب وهما من كبار فقهاء الإباضية في هذا الأمر وطلبوا من الإباضية التوقف عن هذه المسألة.

غير أن أبا الخطاب حسماً لهذا الموضوع ورغبة منه في أن يقود جماعة

---

(١) الشماخي، ١٢٤.

(٢) المصدر نفسه، ١٢٥.

(٣) المصدر والصفحة.

متماسكة غير مختلفة ، اشترط عليهم ما اشترط ، فوافقوه ، ومن ثم بايعوه . والظاهر أن بيعتهم له كانت في سنة ١٤٠ هـ ، ذلك أنه تمكن في هذه السنة من الاستيلاء على مدينة طرابلس .

وتجدر الإشارة هنا إلى أن التاريخ الذي تمت فيه بيعة أبي الخطاب وخروجه في ولاية طرابلس إماماً للإباضية سنة ١٤٠ هـ ، كان في الوقت الذي انهار فيه الفهريون في إفريقية والمغرب، وانتهى سلطانهم بمقتل آخر أمرائهم حبيب ابن عبد الرحمان على أيدي الصفرية بزعامة عبدالملك بن أبي الجعد في المحرم من سنة ١٤٠ هـ[1] .

وكان ضعف الحامية في مدينة طرابلس، وضعف موقف واليها من قبل الفهريين قد شجع أبا الخطاب على افتتاح أعماله العسكرية بالاستيلاء على طرابلس ، ليؤمن ظهره قبل الشروع في افتتاح إفريقيــة والمغرب . واستولى أبو الخطاب على المدينة ، بأن أدخل رجاله فرادى وقد أخفوا سلاحهم ، ثم إنهم تجمعوا وسط المدينة وشهروا السلاح وبدؤوا في الاستيلاء على أهم مرافقها . والظاهر أن الوالي وأتباعه قد فوجئوا بهذا الأمر وسقط في أيديهم . واتجه الإمــام الإباضي في جماعته إلى الوالي وخيره بين الخروج من المدينة أو البقاء على أن ينزع من الولاية ، فاختار الخروج إلى المشرق[2] .

وكان استيلاء الصفرية على القيروان قاعدة المغرب، يعني في المقام الأول تمركزهم في السلطة وانتشار نفوذهم على إفريقية والمغرب. ولهذا بادر الإباضية بعد انهيار الفهريين بالاستيلاء على طرابلس قبل أن يمتد إليها النفوذ الصفري ويتخذوها لضرب الإباضية في حيز طرابلس . كما أن استيلاء الإباضية على طرابلس كان الخطوة العملية الأولى لهم نحو بناء دولة الإباضية والوقوف في وجه الصفرية . ولم تكن بيعة الإباضية لأبي الخطاب في سنة ١٤٠ هـ ،

---

(١) الاستقصا ، ١/١٢٢ .

(٢) الشماخي ، ١٢٦ .

وهي السنة التي سقطت فيها الإمارة الفهرية ، إلا الرد الإيجابي الحاسم منهم على الصفرية وكان استيلاؤهم على القيروان بدء امتداد نفوذهم على بلاد إفريقية والمغــرب .

بعد أن استولى الإباضية على مدينة طرابلس ، بدؤوا في تنفيذ المرحلة التالية من مخططهم ، وهي الاستيلاء على كل إفريقية وطرد الصفرية من القيروان . وأخبار استيلاء الإباضية على القيروان وإفريقية مقتضبة جداً لدى معظم المؤرخين أمثال الرقيق وابن الأثير وابن عذارى وابن خلدون . ولا نستطيع الحصول على بعض التفصيلات إلا عند الشماخي والباروني .

يحدثنا الشماخي أن أبا الخطاب لما أن أراد الاتجاه نحو القيروان ، نادى الصلاة جامعة ، ثم صعد المنبر : « فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله وصلى على النبي عليه السلام ورغب في الجهاد وأمر بالاستعداد . فلما خرج من باب المسجد سل سيفه وكسر غمده غضباً لله وترغيباً للجهاد »[1] .

ثم إن أبا الخطاب لما برز بقواته ، أمر مناديه أن ينادي من له أبوان كبيران أو أب واحد فليرجع . والحقيقة أن الإمام الإباضي كان لا يريد أن يسير معه من يكون مشغول البال والذهن ، وأنه كان يريد المقاتلين متفرغين تمام التفرغ للقتال في هذه المسيرة . ويخبرنا الشماخي أنه لم يعد من الجيش أحد ، وهذا يعني أن كل الجند كانت لهم رغبة صادقة في القتال . وكان تعداد هذا الجيش ستة آلاف مقاتل .

ثم إن أبا الخطاب بعد هذه الخطوة التي تأكد له فيها رغبة كل من في جيشه في الجهاد : « خطب أصحابه بعد أن حمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه عليه السلام . فقال : أطمع لمن مات في هذه الغزوة الجنة ، إلا من فيه إحدى ثلاث خصال : قاتل نفس ظلماً وقاعد على فراش حرام ومن في يده أرض مغصوبة . والمخرج منها أن يتبرأ من المرأة ويتوب إلى الله ويتبرأ من الأرض وليشهد

---

(١) الشماخي ، السير ، ١٢٧ .

على تركها وليقد نفسه القاتل لأولياء المقتول ، فإن لم يجدهم فليدفع نفسه في سبيل الله »[1] .

إن إبا الخطاب هنا لا يريد أن يكون في جيشه من ارتكب إثماً في حق الله وحق الناس . كان يريد كل فرد في جيشه صورة صادقة للمسلم المجاهد الذي لم يرتكب إثماً في حق ربه ولا حق عباده ، وليس من هدف وراء جهاده إلا وجه الله ورفع الظلم والطغيان . والذي دفعني إلى إثبات هذا النص ، هو أن معظم قادة الإباضية سواء ممن سبق أبا الخطاب أو جاء بعده ، كان قبل أن يخرج على رأس قواته للقتال ، لا بد له أن يثير هذه الأمور . فهي إذن قاعدة ثابتة لدى الإباضية وقد يقول معترض إن هذه المقالة قد جاءت على لسان الشماخي وهو إباضي ، وهو يحابي أهل مذهبه ويتعصب لهم . والرد على هذا ، أن الإباضية فرقة إسلامية متشددة في التمسك بقواعد الدين الإسلامي ، وهذا أمر يشهد به الكثيرون من المنصفين ممن هم ليسوا على مذهبهم . فهم لا يتبعون فاراً خارج بلادهم وحوزتهم ولا يجهزون على جريح ولا يسلبون أعداءهم بعد الانتصار عليهم، ولا يأخذون من معسكر عدوهم شيئاً إذا ما انتصروا عليه حتى ولو كان ذهباً أو فضة ، ولا يستحلون إلا أخذ الخيل وحيوانات النقل والسلاح لاتخاذها وسيلة للجهاد في سبيل الله .

يقول البغدادي أن الإباضية : « حرموا دماءهم – أي دماء مخالفيهم لا يقتلونهم غيلة – واستحلوها علانية ... وقالوا باستحلال بعض أموالهم دون بعض ، والذي استحلوه الخيل والسلاح . فأما الذهب والفضة . فإنهما يردونهما على أصحابهما عند الغنيمة »[2]. ويؤكد الشهرستاني أن من مبادىء الإباضية تجاه مخالفيهم أن: « غنيمة أموالهم من السلاح والكراع عند الحرب حلال وما سواه حرام . وحرام قتلهم وسبيهم في السر غيلة ، إلا بعد نصب القتال وإقامة الحجة[3] »

---

(١) الشماخي ، السير ، ١٢٧ ، ١٢٨ .

(٢) البغدادي ، الفرق بين الفرق ، ١٠٣ . (٣) الشهرستاني ، الملل والنحل ، ١/١٣٤ .

افتتح الجيش الإباضي في طريقه إلى القيروان ، مدينة قابس ، بعد أن حاصرها مدة حتى اضطر أهلها إلى الإذعان والطاعة . وترك عليها أبو الخطاب عاملاً من قبله ، ثم اتجه إلى القيروان . وعندما علم الصفرية بقرب وصول الإباضية خرجوا للقائهم وعلى رأسهم عبد الملك بن أبي الجعد . ووقعت المعركة بين الطرفين في صفر من سنة ١٤١ هـ ، وانتهت بهزيمة الصفرية ومقتل زعيمهم عبد الملك[١] .

ولم تكن هذه المعركة هي النهائية ، ولا كان الطريق إلى القيروان مفتوحاً ، ذلك أن الجيش الصفري بعد هزيمته ، أو لما لاحت له بوادر الهزيمة بعد مقتل قائده ، تقهقر سريعاً إلى القيروان وأغلق أبوابها وتحصن بأسوارها . وأسرع الإباضيون وضربوا الحصار على المدينة . وطال الحصار ، وأجهد الإباضيون ، خاصة أن العام كان عام جدب وقحط . ولذلك دبر الإباضيون خطة جديدة بأن وضعوا كميناً لأعدائهم وأظهروا لهم تقهقرهم نحو الشرق . فاتبعهم الصفريون من أجل ضرب مؤخرة الجيش الإباضي ، فخرج عليهم الكمين وأثخن فيهم ، ثم بادر الإباضية إلى أبواب القيروان فدخلوها على أعدائهم قبل أن تغلق دونهم ، وبذلك تمكنوا من السيطرة على عاصمة المغرب وإخراج الصفرية منها .

وهنا تجدر الإشارة إلى أن الشماخي كثيراً ما يقول عند الكلام عن هذه الأحداث ، أن أهل القيروان فعلوا كذا من الأعمال ، أو « فلما أصبح أهل القيروان ظنوا أنهم هربوا » مما قد يفهم منه أن المقصود بذلك سكان القيروان . والمنطقي أن الشماخي يقصد بأهل القيروان ، الصفرية المستولين عليها ، أما سكان القيروان الأصليون وأهلها ، فليست لهم مصلحة في مقاتلة الإباضية وتتبعهم .

وبعد هذه الانتصارات التي حققها الإباضيون على الصفرية ، سواءً

(١) الناصري ، الاستقصا ، ١/١٢٣ ، ١٢٤ .

في المعركة الرئيسية التي قتل فيها عبد الملك ، أو عند أسوار القيروان ، لم يسلبوا قتيلاً ولا أجهزوا على جريح ، ولا غنموا ما يحتويه معسكر أعدائهم . ولم يأخذوا منه إلا السلاح والكراع لاتخاذها أداة للجهاد ، ولا أفسدوا زرعاً ولا قطعوا شجراً ولم يضروا بالناس ولا بحيواناتهم .

ثم إن أبا الخطاب بعد أن دخل القيروان ، نظم أمورها وطمأن أهلها وسار فيهم سيرة حسنة. وبذلك أصبح حكم الإباضية يشمل أغلب إفريقية ، ويمتد شرقاً حتى أرض سرت . ولم يستقر أبو الخطاب بالقيروان ، بل إنه عين عليها عبد الرحمان بن رستم والياً ، ثم خرج إلى طرابلس حيث أخذ يستعد لملاقاة الجيوش العباسية التي وردت الأخبار بقرب وصولها .

ونلاحظ من تتبعنا لأحداث تاريخ المغرب في الفترة السابقة ، وهي الواقعة منذ سنة ١٣٢ هـ وهي السنة التي قامت فيها الدولة العباسية وحتى سنة سنة ١٤٠ هـ ، أن العباسيين لم يتدخلوا تدخلاً مباشراً في أمور المغرب وإنما اكتفوا أولاً بالطاعة المقدمة لهم من الفهريين أيام أبي العباس السفاح ثم حاول المنصور أن يكون نفوذه عليهم أكثر إيجابية . وعلى الرغم من أن عبد الرحمان ابن حبيب رفض ذلك ، إلا أن خلفه عادوا إلى طاعة بني العباس ، ولكن الأحداث عاجلتهم ولم تلبث أن قضت عليهم. ويظهر أن العباسيين كانوا على علم تام بما يجري في المغرب والأحزاب المتصارعة فيه . لذلك فضلوا التريث في الأمر وترك المتصارعين يتقاتلون حتى يجهدوا أنفسهم ويفني بعضهم بعضاً . فالصفرية استطاعت أن تقضي على الإمارة الفهرية ثم إنهم واجهوا الإباضية ، وانتهى الصراع بالقضاء على سلطان الصفرية في إفريقية واستقرار حكمها في أيدي الإباضية . ولكن ذلك لم يتم إلا بعد بذل الكثير من الجهد والعنـــاء .

في الحين الذي أصبحت فيه إفريقية تحت سيطرة الإباضية وحدهم ، بدأ العباسيون في اتخاذ الخطوات العملية للاستيلاء على إفريقية أولاً ثم بقية بلاد

المغرب ثانية . واهتمام العباسيين بإفريقية والمغرب والأندلس، ورغبتهم في فرض سيادتهم عليها يرجع إلى عدة عوامل . منها أنهم أصحاب السلطان والنفوذ في الدولة الإسلامية ، لذلك فقد كان المنطق السياسي بالنسبة لهم أن تمتد سياستهم على كل البلاد الإسلامية ، ولا أقل من أن يشمل نفوذهم كل البلاد التي كانت خاضعة للأمويين . كما أن العباسيين أرادوا تتبع أعداءهم من الأمويين والعلويين الذين لجأ الكثيرون من زعمائهم إلى المغرب والأندلس ، وأرادوا القضاء عليهم قبل أن يؤسسوا لهم سلطاناً بهذه البلاد . ولعل في تمكن عبد الرحمان بن معاوية (الداخل) من الاستيلاء على الأندلس، وتأسيسه لدولة أموية فيه ، كان حافزاً قوياً للعباسيين لأن يبعثوا جيوشهم لهذه المنطقة ويوجدون لأنفسهم موطىء قدم ومركز نفوذ للعمل منه على تحطيم الأمويين والعلويين إن استطاعوا، وإلا فإيقافهم والحد من توسعهم ناحية المشرق .

وإذا كانت هذه نظرة العباسيين إلى الأمويين والعلويين وهم من بني عشيرتهم الأقربين ، فإن نظرتهم لم تكن تقل عداء نحو الصفرية والإباضية ، بل إنهم كانوا على علم تام بما عانته الدولة الأموية من أتباع هاتين الفرقتين في المشرق والمغرب على حد سواء . لذلك أرادوا المبادرة بتحطيم هاتين الفرقتين ومنعهما من تأسيس دول لهما قد تكون خطراً عليهم . كما أن العباسيين أرادوا الاستيلاء على بلاد المغرب ، وعلى الأقل ولاية إفريقية كلها ، وذلك خوفاً من تمكن البيزنطيين من النزول بسواحلها واتخاذها لمراكز نفوذ فيها ، وضرب الدولة العباسية منها ، والإطباق عليها من الشرق والغرب .

لكل هذه العوامل وخاصة بعد أن سقطت الإمارة الفهرية وانحسر النفوذ الصفري من إفريقية ، ولم يبقَ إلا النفوذ الإباضي في المغرب الأدنى ، بادر العباسيون بإرسال قواتهم نحو البلاد المغربية . وكانت أول محاولة للعباسيين للدخول إلى إفريقية قد تمت في عهد أبي العباس السفاح سنة ١٣٦ هـ. وأهم الروايات التي تتكلم عن هذه الحملة ، روايتا الكندي والمقريزي ، لما فيهما من تفصيلات ، غير أنه يتخللهما بعض التناقض الذي قد يعود إلى النساخ والمحققين.

يذكر الكندي أن صالح بن علي بعد أن دخل مصر لخمس خلون من ربيع الآخر سنة ١٣٦ هـ في ولايته الثانية على مصر ، عين أبا عون عبد الملك ابن يزيد على قيادة الجيش العباسي المتوجه نحو إفريقية والمغرب . وأن هذا القائد أرسل أمامه مجموعة من الدعاة ليقوموا بدعوة أهل المغرب إلى طاعة العباسيين ، وأولئك الرجال هم قنبرة بن (بحربة) بن عبد الرحمان بن معاوية ابن حديج وعثمان بن عبيد الله بن موسى بن نصير والضحاك بن محمد اللخمي ووحوح بن ثابت البلوي . وقد تحركوا قبل أبي عون ووصلوا سرت ولم يتجاوزوها . والظاهر أنهم كانوا على رأس قوة استطلاعية سبقت القوات الرئيسية . وصفتهم الحربية التي يطالعوننا بها في كثير من أحداث هذه الفترة تدل على أنهم كانوا رجال حرب وليسوا برجال دعاية سياسية . ومما يؤكد أنهم من القادة ، أنهم لم يتجاوزوا سرت ، وسرت كانت تحت سيادة العباسيين ، وهم قد وضعوا فيها الحاميات لتقوم بمراقبة العدو ومهاجمته إن ساعدت الظروف على ذلك .

وأرسل القائد العباسي أمامه عياش بن عقبة الحضرمي لنقل المؤن والعتاد ، كما أرسل في شوال من السنة (١٣٦ هـ) المثنى بن زياد الخثعمي إلى الإسكندرية ليقوم بالإشراف على إعداد الأسطول الذي سينقل قسماً من القوات عن طريق البحر إلى برقة . أما مقدمة الجيش فقد تحركت بقيادة عامر بن إسماعيل [١] .

غير أن هذه الحملة لم تباشر الحرب لوفاة الخليفة أبي العباس السفاح في ذي الحجة ١٣٦ هـ وبعد أن خلفه أبو جعفر المنصور ، أقر صالح بن علي على ولاية مصر وأمره بإرجاع القوات التي كانت قد اتجهت إلى إفريقية . وهكذا رجع أبو عون عبد الملك بن يزيد بعد أن استقر ببرقة أحد عشر شهراً وابتنى له مسجداً فيها .

وإذن فهذه الحملة قد أرجىء أمر توجيهها إلى إفريقية لعدة أسباب .

---

(١) الكندي ، الولاة والقضاة ، ١٠٢ . والمقريزي ، الخطط ، ٢/٧٨ ، ٧٩ .

منها وفاة الخليفة أبي العباس وتولي أبو جعفر المنصور ، ورغبة الأخير في أن تكون جيوشه قريبة منه احتياطاً للظروف ، وحتى يثبت دعائم إمرته . ثم إن ثورة الحكم بن ضبعان الجذامي في فلسطين، جعلت والي فلسطين ومصر والمغرب، صالح بن علي ، يستعيد قواته المتجهة إلى إفريقية ، لقمع الثورة التي شبت في أحد أجزاء ولايته . كما أن الظروف في إفريقية والمغرب لم تكن مواتية للعباسيين ، إذ أن الفهريين ما زالوا يصارعون من أجل السلطان . هذا بالإضافة إلى تحفز الصفرية والإباضية . وظهور العباسيين في إفريقية في هذه الظروف ، قد يكتل جهود القوى المتصارعة ضدهم . لذلك بادر العباسيون بسحب قسم من قواتهم انتظاراً لفرصة أخرى تكون ملائمة لهم . غير أن ذلك لا يعني انسحابهم الكامل من ليبيا أو سحبهم لكل قواتهم ، فمن المنطقي أن يكونوا قد تركوا قوة كبيرة ببرقة لضمان تبعيتها لهم ، وانتظاراً لمجيء الجيوش والإمدادات في مستقبل الأيام .

وقد وقع عبء مد النفوذ العباسي في إفريقية والمغرب على كاهل والي مصر ، محمد بن الأشعث، الذي عين سنة ١٤١ هـ . وعند التأريخ للحوادث التي وقعت في عهد محمد بن الأشعث ، بكونه والي مصر والذي يقع على عاتقه عبء مد سلطان العباسيين على إفريقية، ومقاتلة الإباضية ، سنجد أن بعض المؤرخين يثبتون إرسال ابن الأشعث لحملة واحدة ضد الإباضية وهو بمصر ، وبعض آخر يثبت إرساله لحملتين .

فابن عذارى والكندي والمقريزي والناصري وأحمد النائب [1] ، يثبتون تسجيل حملة واحدة ، وهي التي وقعت عند مغمداس . أما الشماخي [2] فإنه يؤكد لنا وصول حملتين، الأولى وصلت إلى ورداسة والثانية إلى

---

(١) الكندي ، الولاة ، ١٠٩ . المقريزي ، الخطط ، ٢/٧٩ . ابن خلدون ، العبر ، ٤/٤٠٨ ، ٤٠٩ . ابن عذارى ، البيان ، ١/٨٢ . الناصري ، الاستقصا ، ١/١٢٧ . النائب ، المنهل ، ١/٨٨ .

(٢) الشماخي ، السير ، ١٣٠ .

مغمداس . والمؤرخ الذي يعتمد عليه في هذه الناحية، هو الرقيق القيرواني[1] باعتباره أقدمهم جميعاً . وهو يؤكد مجيء الحملة التي وصلت حتى ورداسة . وهذا ما يدعم رواية الشماخي الذي يرجع كثيراً إلى مؤلف الرقيق . غير أنه في النسخة المطبوعة من مؤلف القيرواني نجد بعد ذكر موقعة ورداسة مباشرة ، تخريماً كبيراً تنقطع فيه رواية تاريخ إفريقية والمغرب حتى عهد عمر بن حفص . مما يفوت علينا فرصة معرفة موقعة مغمداس والظروف التي أحاطت بها . غير أنه إذا كانت الموقعة الأخيرة يجمع عليها الكثير من المؤرخين ، فإنه يمكننا أن نطمئن إلى رواية الشماخي التي تؤكد إرسال ابن الأشعث لحملتين إلى إفريقية قبل أن يتجشم عبء قيادة الجيوش بنفسه .

عندما تولى ابن الأشعث ولاية مصر سنة ١٤١ هـ ، أرسل حملة بقيادة العوام بن عبد العزيز البلجي ، وصلت حتى ورداسة من أرض سرت . وكان الإباضية على علم تام بتحركات الجند العباسي ، ولذلك أرسل أبو الخطاب قوة بقيادة مالك بن سحران الهواري . وانتهى القتال بهزيمة الجيش العباسي وتقهقر فلوله ناحية المشرق . ثم إن ابن الأشعث أرسل في سنة ١٤٢ هـ حملة أخرى بقيادة أبي الأحوص عمرو بن الأحوص العجلي . والظاهر أن جيش العباسيين في هذه المرة كان كبيراً لدرجة أن أبا الخطاب خرج على رأس القوات الإباضية بنفسه . والتقى الجيشان عند مدينة مغمداس من أرض سرت وانتهت المعركة بانتصار الإباضية وتقهقر العباسيين وعودة أبي الأحوص مفلولا[2] .

أدرك العباسيون أن مقاتلة الإباضية في إفريقية ليست بالهينة ، بل لا بد لهم من أن يستعدوا لهم استعداداً أكبر ويولوا قيادة جيوشهم أكفأ الرجال . ولذلك أصدر الأمير أبو جعفر المنصور أمره بإعفاء محمد بن الأشعث من ولاية مصر ، وعينه قائداً للجيوش الموجهة ضد الإباضية وذلك سنة ١٤٢ هـ وعسكر

---

(١) الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقية ، ١٤٢ .

(٢) ابن عذارى ، ١/٨٢ . الكندي ، ١٠٩ .

ابن الأشعث في الجيزة حيث صلى عيد الأضحى بها ، ثم فصل بقواته إلى الإسكندرية . والظاهر أن مدداً كبيراً من القوات قد وصل من المشرق . فالكندي [1] يحدثنا أن حميد بن قحطبة عندما عين على ولاية مصر بعد ابن الأشعث ، قد جاء إلى مصر في عشرين ألف مقاتل، ثم جاء عسكر آخر في ٦ شوال سنة ١٤٣ هـ على رأسه عامر بن إسماعيل ، وفيه من القواد المشهورين الأغلب بن سالم . والمرجح أن هذه القوات كانت مدداً لابن الأشعث ، خاصة وأن الأغلب بن سالم كان من أبرز القادة الذين ساعدوا ابن الأشعث في حربه ضد الإباضية .

واستغل العباسيون بعض العناصر الغاضبة أو الموتورة من أهل إفريقية ، والذين كانوا قد لجأوا إليهم ، فأرسلوها مع جيش ابن الأشعث ، لاستطلاع أخبار العدو وتخذيله وتقديم العون للقوات العباسية . ومن هؤلاء أحد أتباع أبي الخطاب الإباضي . وهو جميل السدراتي ، وكان قد سلب أحد القتلى في المعركة التي انتصر فيها الإباضية ودخلوا بعدها القيروان . وعندما رفع أمره إلى أبي الخطاب أدبه وعاقبه ، فخرج مغاضباً إلى أبي جعفر المنصور : « فأقام سنة لا يؤذن له بالدخول ، ثم أذن له ، ثم سأله عن حاجته ، فقال : أن تبعث معي عسكرا إلى المغرب » [2] .

هذا وبعد استيلاء الإباضية على إفريقية ، خرج منها كثير من زعماء الجند ، أمثال نافع بن عبد الرحمن وعبد الرحمان بن أنعم وأبي البهلول . ويرجع الشماخي خروجهم إلى كرههم لعدل الإباضية [3] . وفي هذا المقام يجب أن نشير إلى أن الكثيرين من زعماء إفريقية وقادتها قد لجؤوا إلى العباسيين بعد سقوط القيروان في أيدي الصفرية ، لاستنفارهم والاستعانة بهم في استعادة البلاد . وقد استغل أبو جعفر المنصور أولئك وبعث بهم مع ابن الأشعث

---

(١) الكندي ، ١١٠ .

(٢) الشماخي ، ١٢٩ ، ١٣٠ .

(٣) نفس المصدر والصفحات .

ليستفيد منهم في قتاله للإباضية[1].

وخرج ابن الأشعث في قواته، وكان معه ثلاثة من كبار القادة، هم الأغلب بن سالم التميمي والمحارب بن هلال والمخارق بن الغفار الطائي. واختلفت الروايات في تحديد عدد الجند، فبعضهم يجعله أربعين ألف مقاتل[2] وبعضهم يجعله سبعين ألفاً[3]. والظاهر أن القوة التي خرجت من مصر مع ابن الأشعث كانت أربعين ألفاً، ثم انضمت إليها القوات الموجودة في برقة، بالإضافة إلى الأمداد التي كانت تصل من المشرق تباعاً، فوصل تعداد الجيش إلى السبعين ألفاً.

وكان خروج ابن الأشعث على رأس قواته، كما بينا سابقاً، بعد عيد الأضحى سنة ١٤٢ هـ. ولم يتسرع في ملاقاة أبي الخطاب والإباضية، وذلك لعدة أسباب منها، كثرة القوات التي كانت مع أبي الخطاب والتي تبالغ بعض الروايات وتجعلها تصل إلى مائتي ألف. ثم إن القائد العباسي أراد إرهاق الإباضية بأسلوب الكر والفر، لأن القوات التي كانت مع أبي الخطاب لم تكن من المقاتلين النظاميين، بل هم أفراد من عامة الشعب لهم حرفهم وزروعهم، لبوا النداء عندما نادى فيهم أبو الخطاب بالجهاد. لذلك كان طول الوقت يرغم الكثيرين من الإباضية على ترك أبي الخطاب والعودة لرعاية مصالحهم. ولعل النص التالي للشماخي يؤكد لنا هذا، فهو يقول: « وكان وقت زرع، فأراد الناس التفرق إلى زروعهم وأوطانهم »[4]. هذا في الوقت الذي كان فيه ابن الأشعث غير متأثر بإطالة فترة الانتظار وعدم التسرع بالقتال، ذلك لأن كل أفراد جيشه إنما هم جند نظامية متفرغون للقتال ويتناولون الرواتب المقررة،

---

(١) ابن عذارى، ١/٨٣. ابن خلدون، ٤/٤٠٨، ٤١١. الشماخي، ١٣٠، ١٣١. الناصري، ١/١٢٧.

(٢) ابن عذارى، ١/٨٣. الناصري، ١/١٢٨.

(٣) الشماخي، ١٣٠. دبوز ٣/١٠.

(٤) الشماخي، ١٣١.

بالإضافة إلى أن ذلك يعطي الفرصة للدولة العباسية لأن ترسل بالمزيد من الرجال والعتاد والمؤن إليه .

وقد وضع ابن الأشعث خطته على أساسين ، العمل على تفريق وحدة الإباضية ، ثم إيقاع قيادتهم في خدعة عسكرية . وقد اختلفت بعض القبائل التي كان يتكون منها الجيش الإباضي بالفعل ، وذلك : « أن زناتة وهوارة تنازعتا فيما بينهما ، واتهمت زناتة أبا الخطاب بميله مع هوارة ، ففارقه جماعة منهم »[1] والمرجح أن ابن الأشعث استطاع أن يدس بين جماعات الإباضية من يثير هذا الخلاف ، وذلك على الرغم من عدم ذكر المؤرخين لذلك . وأسلوب الدس ونشر الفرقة بين الأعداء ، درس استفاده ابن الأشعث من كبار القادة . فالمهلب ابن أبي صفرة كثيراً ما اتبعه مع الأزارقة في المشرق ، كما اتبع الأسلوب نفسه عبد الرحمان بن حبيب الفهري مع الإباضية أنفسهم .

ثم إن ابن الأشعث بعد أن أرهق الإباضية بالمداورة وإطالة مدة الانتظار والتربص ، وبعد أن خرج الكثيرون من زناتة مغاضبين لهوارة ولأبي الخطاب ، وعاد الكثيرون لتفقد زروعهم ومواشيهم ، بدأ في تنفيذ خدعته العسكرية ، وذلك أنه أخذ في التقهقر ناحية المشرق مظهراً أن أبا جعفر المنصور أمره بالرجوع لأمر هام . وتباطأ في تقهقره الذي استمر حوالي ثلاثة أيام .

والحقيقة أن إمام الإباضية أبا الخطاب وبعض أعضاء مجلس شوراه ، لم تنطل عليهم الحيلة ، بل أدركوا ما ينطوي عليه تقهقر الجيش العباسي من خداع ، ولكنهم لم يستطيعوا إقناع الأغلبية ، فاضطروا إلى الخضوع لرأي الأغلبية . ورفع أبو الخطاب محلاته وبدأ في العودة إلى طرابلس ، وأخذت جموع الإباضية في العودة إلى أوطانها .

وهنا بدأ ابن الأشعث مرحلة النزال مع أبي الخطاب ، فتوقف عن التراجع وسد الطرق والمسالك منعاً لتسرب أخبار كرته إلى أبي الخطاب . وأخذ في

---

(١) ابن عذارى ، ١/٨٣ .

السير سريعاً ناحية طرابلس لإدراك إمام الإباضية والقلة الذين معه . فأدركه عند تاورغا وسبقه إلى الماء ، وهو عنصر هام من عناصر كسب المعارك. وأبى أبو الخطاب أن يتقهقر أمام الجيش العباسي . وعندما أشار عليه بعض خاصته بالتريث حتى يعود إليه أصحابه ، قال: « لا يسعني في ديني أن أقعد عن دفاع العدو عن رعيتي »[(١)] .

وانضمت إلى أبي الخطاب والقلة الذين كانوا معه ، بعض سرعان المقاتلين من القبائل الليبية ، من هوارة ونفوسة وظرية . ووقعت عند مدينة تاورغاء شرقي طرابلس معركة غير متكافئة . وبعد قتال مرير وعنيف ترجحت كفة النصر إلى جانب الجيش العباسي وهزم الإباضية وقتل إمامهم أبو الخطاب والكثيرون من جنده . وعندما وصلت أنباء مقتل أبي الخطاب وهزيمة جيشه، إلى قبائل زناتة الليبية ، تجمعوا بسرعة ورجعوا لمقاتلة القوات العباسية ، وكان الزناتيون بقيادة أبي هريرة الزناتي ، وهم ستة عشر ألفاً . وانتهت المعركة بهزيمة زناتة الإباضية ، وذلك في ربيع الأول من سنة ١٤٤ هـ .

وقد استولى ابن الأشعث على مدينة طرابلس في هذه السنة ، وعين عليها والياً من قبله، هو المخارق بن غفار الطائي . ثم إنه بعد ذلك يمم شطر مدينة القيروان . وكان عبد الرحمان بن رستم، عامل أبي الخطاب عليها قد جاء على رأس قوة من الإباضية مدداً لأبي الخطاب ، فوصل حتى مدينة قابس ، وعندها وصلته أنباء الهزيمة ومقتل الإمام ، كما لاحت في الأفق طلائع جيش ابن الأشعث التي كانت تتبع فلول الإباضية . فأدرك ابن رستم استحالة مقاتلة الجيش العباسي ، لذلك كر راجعاً ، ولكنه لم يعد إلى القيروان، بل ذهب إلى المغرب الأوسط . وتختلف الروايات في هذا الموضع . فابن خلدون والناصري وسعد زغلول [(٢)] يذكرون أن ابن رستم وصلته أنباء الهزيمة وهو

---

(١) الشماخي ، ١٣٢ .

(٢) ابن خلدون ، ٤١١/٤ . الناصري ، ١٢٨/١ . سعد زغلول ، ٣١٤ .

بالقيروان ، فتركها وسار نحو المغرب . أما ابن عذارى ، فاكتفى بالقول : « ولما انتهى إلى عبد الرحمان بن رستم قتل أبي الخطاب ، ولى هارباً إلى موضع تاهرت ، فاختطها ونزلها »(١).

وقول ابن عذارى لا يجزم بالمكان الذي كان به ابن رستم ، القيروان كان ام قابس . والمرجح عندي أن ابن رستم وصلته أنباء الهزيمة عند قابس ، وأن كتائب من جيش ابن الأشعث أخذت في مطاردته . ومما يؤيد هذا الترجيح أن بعض الروايات(٢) تذكر أن أهل القيروان بعد أن وصلتهم أنباء هزيمة الإباضية وانتصار العباسيين ، ثاروا بالقيروان وقبضوا على عامل ابن رستم وكبلوه بالحديد ورموا به في السجن ، وولوا عليهم عمر بن عثمان القرشي . وليس من المعقول أن يكون عبد الرحمان بن رستم بالقيروان ويعين عليها عاملاً آخراً في نفس الوقت . ولكن المعقول أن يكون بعد خروجه على رأس قواته لنجدة أبي الخطاب قد عين نائباً عنه في الحكم . كما أنه ليس من المنطقي الافتراض بأن ابن رستم ربما عين هذا الوالي بعد أن تراجع من قابس أمام الجيش العباسي ، فدخل القيروان وعين والياً عليها ثم هرب إلى المغرب . إذ ليس من المعقول أن يعمل على أن ينجو بنفسه ويعرض غيره لهلاك مؤكد ، خاصة أن الإباضية متشددون في مثل هذه الأمور . وتجدر الإشارة هنا إلى أن الدكتور سعد زغلول ذكر في كتابه تاريخ المغرب العربي ، صفحة ٣١٤ هامش رقم (٤) أن الشماخي مؤلف كتاب السير ذكر أن عبد الرحمان بن رستم كان في موقع القتال مع أبي الخطاب . والواقع أن الشماخي لم يذكر ذلك ، والذي قاله أن ابن الأشعث : « أدرك عبد الرحمان بن رستم وهو بمن معه من أهل إفريقبة بقابس »(٣).

بعد انتصار ابن الأشعث على الإباضية في نواحي طرابلس ، دخل مدينة

---

(١) ابن عذارى ، ١/ ٨٤ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) الشماخي ، ١٣٢ .

القيروان في جمادى الأولى من سنة ١٤٤ هـ ، أغسطس ٧٦١ م . ثم إنه خرج سريعاً في تتبع عبد الرحمان بن رستم ، للقضاء عليه وعلى من معه من الإباضية . وقد لجأ ابن رستم إلى جبل سوفجج واحتمى ومن معه بمرتفعاته وغاباته . وأخذ الفريقان يتقاتلان أشد قتال ، ولكن دون أن يحرز الجيش العباسي نصراً كاملاً على جماعة ابن رستم ، الذي أخذت جموعه تزداد يوماً بعد يوم بمن انضم إليه من إباضية المغرب الأوسط وجبل نفوسة وطرابلس . ولما أن تفشت الأمراض والأوبئة بين الجند العباسي والإباضي ، رفع ابن الأشعث محلات قواته وكر راجعاً إلى القيروان (١) .

والظاهر أن الإباضية بعد استيلائهم على القيروان هدموا بعض أجزاء سورها ، أو أنهم قد فعلوا ذلك عند حصارهم للصفرية بها . لذلك ما إن استولى العباسيون عليها حتى شرعوا في إصلاح السور ، وذلك في ذي القعدة ١٤٤ هـ/ فبراير ٧٦٢ م . وانتهى من العمل فيه في رجب ١٤٦ هـ/ سبتمبر ـ أكتوبر ٧٦٣ م (٢) .

وكان العباسيون يريدون أن تكون إفريقية خالصة لسيادتهم ، لذلك عمل ابن الأشعث على رفع أيدي الإباضية عما تحت سيادتهم من أرض الجنوب الليبي . فأرسل حملة في سنة ١٤٥ هـ بقيادة إسماعيل بن عكرمة الخزاعي ، إلى زويلة وودان ، واستطاعت الحملة الاستيلاء على المدينتين وما بينهما من بلاد وأن تقضي على سلطان الإباضية فيها ، وقتلت زعيم الإباضية عبد الله ابن حيان الإباضي (٣) . وبذلك استطاع ابن الأشعث أن يسيطر على كل ولاية إفريقية أو أغلبها ، ومد عليها سلطان العباسيين ، وعين العمال والولاة على ولاياتها المختلفة .

---

(١) الشماخي ، ١٣٣ . دبوز ، ٣/٢١ ، ٢٣ .

(٢) ابن عذارى ، ١/٨٤ ، ٨٥ . الناصري ، ١/١٢٨ . سعد زغلول ، ٣١٥ .

(٣) ابن عذارى ، ١/١٨٤ .

المصـادر

١ ـ الكندي : محمد بن يوسف، كتاب الولاة وكتاب القضاة ـ بيروت ١٩٠٨ م .

٢ ـ الرقيق القيرواني ، تاريخ إفريقية والمغرب ، تحقيق المنجي الكعبي ، الطبعة الأولى ١٩٦٨ ، تونس .

٣ ـ البغدادي : عبد القادر بن طاهر ، الفرق بين الفرق ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، نشر مكتبة محمد صبيح .

٤ ـ الشهرستاني : محمد عبد الكريم ، الملل والنحل ، تحقيق عبد العزيز الوكيل ، نشر الحلبي ، طبعة ١٩٦٨ م .

٥ ـ ابن عذارى المراكشي ، البيان المغرب في أخبار المغرب ، الجزء الأول ، نشر مكتبة صادر ، بيروت .

٦ ـ ابن خلدون ، العبر ، الجزء الرابع ، منشورات دار الكتاب اللبناني ، ١٩٥٨ م .

٧ ـ المقريزي ، الخطط

٨ ـ الشماخي ، السير ، الطبعة الأولى .

٩ ـ الناصري : الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد ، تحقيق جعفر ومحمد الناصري ، نشر دار الكتاب ، الدار البيضاء ١٩٥٤ م .

١٠ ـ النائب الأنصاري ، المنهل العذب في تاريخ طرابلس الغرب ، نشر مكتبة الفرجاني ، طرابلس ـ ليبيا.

١١ ـ سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغرب العربي ، الطبعة الأولى .

١٢ ـ دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، الجزء الثالث ، الطبعة الأولى .